تتمة - المنهاج الفلسطيني الجديد

انتقادات هذا المعلم أيدها معظم المعلمين الذين التقتهم »آفاق برلمانية«، إلا أن انتقادات أكثر عمقاً كانت من قبل بعض الكتاب والروائيين.

يقول الروائي والكاتب زكريا محمد: لا أعتقد أن ثمة تجاوزاً جوهرياً أو جدياً للمنهاج الفلسطيني عن المناهج السابقة، باستثناء بعض الإشارات إلى الهوية الفلسطينية، فالمناهج بشكل عام تعتمد كسابقتها على الحفظ والتلقين، وثمة طريقة غريبة في اختيار النصوص في كتب اللغة العربية، فالتركيز ليس على جودة النص وفنياته، بل على الرسائل »الأخلاقية« التي نحملها، كما أن مجمل الأشعار التي تحتويها هذه الكتب أشعار ركيكة .. هناك تجاهل واضح للكثير من النصوص الفلسطينية العميقة، والمعترف بها عالمياً.

ولا يتوقف زكريا محمد عند هذا الحد، بل يرى أن المناهج الفلسطينية تتعارض في مضامينها مع القيم التي تحملها وثيقة الاستقلال والقانون الأساسي الفلسطيني، التي تركز على العدالة والحرية والمساواة، أي القيم الديمقراطية، التي »تضرب بشدة« في هذه المناهج، على حد تعبيره.

ويتابع زكريا: هناك ردة عامة نحو الاتجاه المحافظ، ربما بسبب الوضع المضطرب للسلطة الوطنية، والاشتباك الدائم مع الإسرائيليين، الذي يسمح لأنصار التيار المحافظ بالتفرد في عدة مجالات، ومن بينها »المنهاج الفلسطيني«.

ويسخر زكريا من الانتقادات الأميركية والإسرائيلية للمنهاج الفلسطيني، بقوله: أميركا هي من شجعت المتعصبين وأنصار المحافظة وزادت من قوتهم في الوطن العربي .. المنهاج الفلسطيني منهاج محافظ، وبالتالي هو من صنيعة أميركا بشكل أو بآخر .. هي من خلقته وتريد الآن معاقبته.

خوف من التفكير الحر والمبادرة

أما الكاتب جميل هلال، الذي سبق له أن انسحب من إحدى لجان إعداد منهاج »التربية المدنية«، فيقول: لا توجد فلسفة واضحة تسيّر المنهاج الفلسطيني، بحيث تنطلق من خصوصية الحالة الفلسطينية .. نحن أمام مهمة بناء دولة جديدة، يفترض أن تقوم على قيم عصرية، لكن هذا الأمر ربما لم يكن في حسبان معدّي هذا المنهاج.

ويشير هلال، إلى أن »التجربة جعلته يكتشف أن ثمة خوفاً لدى القائمين على إعداد المنهاج من التشجيع على التفكير الحر والمبادرة .. القائمون على هذه المناهج وكتّابه يعتقدون أن المجتمع محافظ، وأن على الوزارة ومركز المناهج أن يأخذا ذلك في عين الاعتبار .. الاعتبار الأول لدى الوزارة ومركز المناهج ليس بناء دولة عصرية .. لا نلاحظ أي دور طليعي في غرس القيم الأساسية كالعدالة والمساواة والحرية.

ويضيف: وزارة التربية والقائمون على إعداد المناهج يعتقدون أنهم يعملون في حقول لا تتقبل أية أفكار جديدة، وبخاصة في المجال المجتمعي، وربما ذلك نابع من تجاربهم الخاصة .. الظلم الواقع على المعلم من حيث الراتب بالدرجة الأولى، جعل كثيراً من المعلمين يميلون إلى المحافظة، خوفاً من المغامرة بهذا الراتب، الضئيل أصلاً، وهكذا كان من الواضح سيطرة الاتجاه المحافظ على هذا المنهاج، بحيث يقوم في مجمله على التلقين والحفظ، واجترار القديم، ويعتمد في الكثير من جزئياته على الترهيب والتخويف.

ويتابع: البعض يقول أنه تم »فلسطنة المنهاج« .. صحيح أن ثمة محاولات وجهوداً، لكن التغيير ليس نوعياً، وبخاصة أن »الفلسطنة« قيم ورواية تاريخية وأهداف .. القيم غير واضحة في هذا المنهاج، والرواية مرتبكة.. إذا أردنا إيجاد جيل يعتمد عليه في البناء، علينا غرس القيم الديمقراطية (حرية، عدالة، ومساواة) في إطار ثقافي .. هذه القيم لم يتم تعزيزها وتحديثها في المنهاج الفلسطيني.

لماذا يتحكم 3-4 أشخاص بما يقرأه جيل كامل؟

ويعمل مركز القطان للبحث والتطوير التربوي أحد مشروعات مؤسسة عبد المحسن القطان على تأسيس وحدة لتقييم وتطوير المنهاج الفلسطيني، وعنها يقول مالك الريماوي، الباحث في المركز: المركز يهتم بالارتقاء بالمعلم الفلسطيني من مختلف الجوانب، وبخاصة مع شعورنا بالإهمال الذي يعاني منه هذا العنصر المهم جداً في بناء المستقبل الفلسطيني، من هذا المنطلق كان لا بد من الاهتمام بالمنهاج الذي هو محور العملية التعليمية .. صحيح أن الوحدة طور التأسيس، لكن الكثير من نشاطات المركز سابقاً كان يتجه نحو تقييم المنهاج وتطويره، أولها ندوة عن كتاب اللغة العربية للصف السادس، قبل أربع سنوات.

ويتحدث الريماوي عن أن لا منهجية محددة تم اتباعها في اختيار النص، وإن وجدت هذه المنهجية أحياناً، فإنها لا تعتمد على أسس فنية، بل تربوية، وفي كثير من الأحيان تعتمد على مزاجية ورؤية معد المنهاج .. هناك تجاهل للتجربة الأدبية الفلسطينية منذ السبعينيات .. النصوص المختارة قديمة ولا تختلف نوعياً عن النصوص في المناهج السابقة.

ويضرب الريماوي، الذي عمل على إعداد أحد المناهج، مثلاً في أن أحد معدي منهاج اللغة العربية للصف الرابع ضمّن الكتاب أغنيتين أو قصيدتين له »دون المستوى«، كما تم التركيز على أشعار ركيكة لشعراء فلسطينيين، في الوقت الذي يتم فيه تجاهل تجربة محمود درويش، أو غسان كنفاني، أو سميح القاسم وغيرهم، إلا ما ندر، فلمحمود درويش مقتطفات بدت ركيكة، ولكنفاني رواية تم حذف الكثير من معطياتها الأساسية فبدت مشوهة للغاية .. المنهاج لا يخوض أية مواجهة مع الخطاب السائد، الذي تحكمه عقلية تقليدية، كما أنه يتعامل مع اللغة بفصل تام عن سياقاتها ودلالاتها، وبعيداً عن دورها في بناء الهوية .. لا أسس واضحة، ولا تغذية راجعة، ولا تنسيق مع أية مؤسسات ذات صلة بالموضوع .. الدول الراقية ترسل لمبدعيها تطلب منهم نصوصاً خاصة بهم، أو نصوصاً كانوا يقرأونها وهم صغار، وبالتالي لا يتحكم ثلاثة أشخاص أو أربعة بما يقرأه جيل بأكمله.

ومن هذا المنطلق يسعى مركز القطان إلى تطوير مشروع للحوار المجتمعي حول المنهاج، حيث بدأت ترسل الكتب المدرسية ورسائل لرصد ردود الفعل، سواء من قبل مؤسسات ذات صلة، أم شخصيات اعتبارية، وأول هذه الردود سيرصدها عدد فصلية »رؤى تربوية« القادم، في كانون الثاني (يناير) المقبل.. كما يعمل المركز على تأسيس نخبة من الخبراء المحليين في مجال تقييم وتطوير المناهج الفلسطينية.

ويؤكد الريماوي أن المركز، وعندما يستكمل تقييم مختلف الكتب المدرسية الفلسطينية، سيتقدم للجهات المعنية، بما في ذلك المجلس التشريعي، للمطالبة بتغيير هذه المناهج.

أربعة سطور للنكبة .. وثلاثة سطور للانتفاضة!

ويوجه الريماوي نقداً كبيراً لكتب التاريخ، وبخاصة ما يتعلق بالحديث عن القضية الفلسطينية في منهاج الصف التاسع، فأربعة سطور هي مجمل ما تم تخصيصه للنكبة، وثلاثة سطور للانتفاضة الأولى، والغريب أن ثورة العام ١٩٥٨ في العراق تأخذ حيزاً أكبر من ذلك.

والمثير في متابعة السطور الثلاثة الخاصة بانتفاضة العام ١٩٨٧، ما تثيره هذه السطور من التباس واضح في العبارات، كما أن المتصفح لهذا الكتاب لا يكاد يفرق بينه وبين كتاب عن التاريخ في موزمبيق أو نيكاراغوا أو ربما أميركا، حيث يقول: في كانون الأول من العام ١٩٨٧، قام الشعب الفلسطيني بانتفاضة عجز الاحتلال عن صدها، وفي العام ١٩٨٨ أعلن الاستقلال، وفي هذه العبارة لبس كبير، فلا حديث عن مبررات إعلان الاستقلال الذي هو في النهاية إعلان رمزي، فالقارئ غير المطلع يتبادر إلى ذهنه أن الشعب الفلسطيني نال الاستقلال، إلا أنه استمر في انتفاضته حتى العام ١٩٩٣، دون أسباب تذكر .. أي حصلوا على الاستقلال واستمروا في الانتفاضة.

لماذا يسود منطق «لا تزعلوا حدا»؟

ويتحدث الريماوي أيضاً عن الكيفية التي تناول فيها منهاج التاريخ للصف السابع ظاهرة »الإقطاع«، حيث يرى أن الكتاب وصف العلاقة بين الإقطاعي (السيد) والفلاح، كأنها علاقة بين زوجين متحابين.

ويؤكد الريماوي أن الهجوم الإسرائيلي الأميركي »غير المبرر« على المناهج الفلسطينية، جعل المسؤولين عن إعداده في حالة من الارتباك، بسبب هذه الاتهامات .. ثمة قرار من مركز المناهج »بإنهم ما يزعلوا حدا«، هذا ما قالوه لي ولغيري، لا نريد أن تغضب القوى الإسلامية أو الوطنية من المنهاج، ولا القوى الاجتماعية، ولا الدول العربية، ولا حتى إسرائيل أو الغرب .. »أرادوا إرضاء الجميع دون الالتفات لمصلحة جيل ستكون على كاهله مهمة بناء المستقبل«.

الأسلوب الحواري يكاد يكون غائباً

وتقول هديل قزاز التي شاركت في إعداد منهاج »التربية المدنية« لأكثر من صف: كنت أتمنى أن يكون المنهاج أجرأ في طرح قضايا معينة .. معدو المنهاج يتجنبون الخوض في أية قضايا قد تثير حساسيات أو خلافات .. الفن في التأليف أن تتيح المجال أمام مناقشة هذه القضايا دون كتابتها .. هذا ما حاولت وغيري إنجازه، لكن الرقابة العالية حالت دون خروج المنهاج بالطريقة التي نريدها .. الأسلوب الحواري يكاد يكون غائباً، وهذا ما سيجعلنا نعود إلى أسلوب الحفظ والتلقين، مما فيه مخاطر كبيرة على الأجيال القادمة.

وتضيف: المنهاج ليس إلا عبارة عن أحاديث في العموميات، دون الخوض في أية قضايا مهمة، إذا ما كانت هذه القضايا إشكالية، أي أنها مناهج »الأمر الواقع« .. القائمون على المناهج لا يريدون »إغضاب أحد«، لكنهم فشلوا في ذلك، بدليل انتقادهم من المحافظين والتقدميين على حد سواء .. كان يجب عليهم الخروج بمنهاج عصري دون الالتفات إلى أية حسابات أخرى .. لا منهجية واضحة، وبالتالي لا يوجد مواقف معينة نستند إليها عند وضع هذه المناهج.

الكثير من المثقفين رفضوا المشاركة لأسباب مادية!!

لكن هديل قزاز تؤكد ضرورة عدم الاتجاه إلى »جلد الذات .. فهي تجربة أولى، وهذا بحد ذاته إنجاز، وبالتالي احتمالات الخطأ كبيرة« .. وترفض قزاز أن تكون وزارة التربية ومركز المناهج شماعتين تتعلق عليهما جميع الأخطاء، على الرغم من وقوعهما في أخطاء عدة، فالكثير ممن ينتقدون المنهاج، وكثير من المثقفين والمبدعين رفضوا المشاركة في إعداد المنهاج، لأسباب في مجملها مادية، كما أن الاحتلال يتحمل جزءاً كبيراً من الثغرات التي يحتويها المنهاج الفلسطيني، وبخاصة أن معظم الكتب الفلسطينية أنجزت خلال انتفاضة الأقصى، أي وسط الاجتياحات والاغتيالات والحواجز ومنع التجول .. نحن يجب أن لا نغفل الجهود الجبارة التي قام بها معدو المناهج .. يجب أن نكون منصفين ولا نحملهم وحدهم المسؤولية .. جهات كثيرة قصرت ولم تؤد واجباتها، وبالتالي خرجت المناهج الفلسطينية دون المستوى المأمول.

المنتقدون يعيشون في أبراج عاجية!

ويدافع د. عمر أبو الحمص، نائب مدير المناهج، عما وصفه بالجهد الكبير والمهم، بقوله: نحن نتحدث هنا عن تجربة أولى، لا تستند إلى التطوير، بل إلى الخلق من العدم، إن جاز التعبير .. نحن نفتقد إلى عنصر التجربة، ولا يجب أن ننسى أننا أعدنا مناهج معظم الصفوف خلال الانتفاضة الحالية، حيث حالت الحواجز العسكرية لقوات الاحتلال دون وصول الكثير من معدي المناهج إلى الاجتماعات المقررة لهم .. مع ذلك تم وضع خطط لتجاوز هذه العقبات، واستطعنا إنجاز ٢٢٦ كتاباً حتى الآن، وهذا إنجاز يعتبره البعض من أهم الإنجازات الوطنية منذ قيام السلطة الوطنية الفلسطينية.

وانبرى أبو الحمص في الدفاع عن الانتقادات التفصيلية لبعض ما ورد في المنهاج، مسوقاً مبررات بعضها مقنع وبعضها الآخر لا، إلا أنه نوه إلى أن المعارضة للمنهاج قد لا تبعد عن إطار المعارضة السياسية للسلطة الوطنية الفلسطينية، والأهم من ذلك هو أن المنتقدين من الكتاب والشعراء والمهتمين في مجملهم »يعيشون في أبراج عاجية«، بمعنى أنهم رفضوا دعوتنا لتقديم ما يمكنه تقديمه في هذا المنجز الوطني .. كثير منهم لا يرضى بألف دولار أو أكثر قليلاً مقابل عام من العمل في إعداد المنهاج، والبعض الآخر لا يملك خبرة للعمل في هذا المجال .. لقد توجهنا للكثيرين، دون ذكر الأسماء، ولم يتجاوبوا معنا .. هل تنتظرون أن نقوم بتوثيقهم وإجبارهم على المشاركة في إعداد المنهاج الوطني الأول لنا.

وبالتالي يرفض أبو الحمص »أية ادعاءات بعدم التعاون مع المؤسسات الأخرى«، ويقول: بابنا مفتوح للجميع لكن لا يمكننا إرغام أحد على المشاركة.

العمل في المناهج لا يزال قيد التطوير

ويشير أبو الحمص إلى عبارة »منهاج تجريبي«، التي تسير وفقها الوزارة، وبالتالي مركز المناهج، حيث يتم العمل على تقييم هذه المناهج، وتغيير ما يراه ذوو الاختصاص ضرورياً، وبالفعل تم حذف بعض المواد واستبدال أخرى، بناء على ما وصلنا من ردود فعل، وبخاصة من قبل المفتشين والمدرسين.. »منهاج تجريبي« عبارة تعني أن العمل في المناهج لا يزال قيد التطوير.

ويرفض أبو الحمص أن المنهاج ينتصر للتيار المحافظ على حساب تيارات أخرى .. يقول: من يتابع قائمة الأسماء التي شاركت في إعداد المنهاج سيكتشف أنهم ينتمون فكرياً وحتى سياسياً لتيارات مختلفة .. ويضيف: الاتجاه التقدمي يجب أن لا يلغي أية فرصة لنقد وكشف نواح ثابتة في المجتمع، وهذا ما حدث في نص »رسالة أم لابنتها«، الذي اتهمه الكثيرون بالتحريض ضد المرأة والترويج لأفكار بالية تخلو من مبادئ العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، على الرغم من أننا أشرنا في الكتاب إلى أن هذه الأفكار كانت سائدة في الماضي، ونطرح سؤالاً على الطلاب حول رأيهم من هذه الأفكار.

ويضيف أبو الحمص: على المعلم دور كبير في المنهاج الفلسطيني، فهو يلعب دوراً محورياً في الإعداد والتوسع وإثارة أجواء الحوار والنقاش داخل الفصل .. فاختصار رواية رجال تحت الشمس لكنفاني يجب أن تدفع المعلم والطالب على حد سواء لقراءة النص الأصلي، .... وهكذا.

نحتاج لنقد علمي وليس »حكي صالونات«

ويعود أبو الحمص ليقول: من ينتقد المنهاج في الغالب لا يقدم النتائج المرجوة من النقد .. العمل النقدي غير ممنهج، ولا يضم خبراء في هذا المجال، وبالتالي يكون في مجمله بعيداً عن الموضوعية. نحن نحتاج إلى نقد علمي وليس »حكي صالونات«.

ويقلل أبو الحمص من أهمية الانتقادات الإسرائيلية والأميركية للمنهاج الفلسطيني، مؤكداً أن المنهاج لا يحمل أية مضامين عنصرية كما يدعي أصحاب هذه الانتقادات، وهم عموماً جهات غير رسمية، كما يقلل أبو الحمص من أهمية التركيز على تبعات »أوسلو«، مؤكداً على »الحرية« التي رافقت إعداد هذا المنهاج، بحيث يؤسس لمرحلة البناء القادمة.